إحسان عبد القدوس

والعالم الروائي لرواية "لا أنام"

مايا عصام خير الدين*

إن من المّهم دراسة العالم الروائي ودلالاته في الرواية؛ فهو يساعدنا على سبر أغوار ذلك العالم عند الروائي، وعلى معرفة كيفية البناء السردي عنده، وكيف بنى شخصياته، ونوّع بينها لتبدو قريبة من الواقع، فحمّلها قضايا وأفكارًا حياتية ورؤيوية ووجودية واجتماعية وإنسانية، وأبرز عبرها جوانب إنسانية معينة.

ولأنّ معالجة العالم الروائي تسمح بمعرفة كيف قسّم الروائي المصري إحسان عبد القدوس (1919 – 1990) أدوار شخوصه، وبنى مكان رواياته وزمانها، وربط أقطاب العالم الروائي سواء على مستوى الوحدات والشّخصيات والمكان والزمان الرّوائي، محملًا إيّاها بدلالات متنوعة، مظهرًا في آن الخلفيات الإيديولوجية والثّقافية والنّفسية، مبينًا كيف استخدم الأشياء والأثاث والأطعمة والأشربة، لتؤدي أدوارًا في الرواية، وتخدم استراتيجياتها. لذلك اخترت عالم عبد القدوس الروائي موضوعًا لبحثي، أمّا لمَ "لا أنام"** تحديدًا، فلأنّ ذلك يرجع لأسباب ذاتية؛ فقد تفاعلتُ مع بطلة الرواية ومعاناتها مع أهلها، وفي إثبات ذاتها في ظل واقع مأزوم، ونفسية مريضة عندها، وفي ظل تساؤلات وجودية يطرحها معظم البشر عن الحبّ والفضيلة، والله والخطيئة والإنسان.

ودفعتني إلى هذه الرواية أيضًا، أسباب موضوعية منها: تميّز بناء عالمها الرّوائي، وتعالق زمانها ومكانها ووحداتها، وعمق دلالاتها، وأدوار تلك العناصر في حدّ ذاتها، وكيف تضافرت معًا لإنجاح بناء ذلك العالم الروائي، وإنطاقه، وتبيان براعة عبد القدوس في صوغ شخوصه، وحبك حبكته، وبناء سرده، واستخدام أشيائه، وبراعة تنويعه بين علاقات الترتيب والديمومة والتواتر في زمن روايته لتشويق القارئ حينًا، وللظهور بمظهر مالك زمام نصّه حينًا آخر.

ولكون هذه الرواية لم توفَّ حقها من النقد، أو معالجة عالمها الروائي، إذ عيب بها على عبد القدوس التّطرق لأمور شائكة حول الله والخطيئة والنفس البشرية والزواج والفضيلة، وعدّ داعيًا للتحرّر عند النساء، ومدمّرًا للأسرة، ونظرًا للدور الكبير الذي أدّته الرواية في حقبة عبد القدوس، وما حدث في عالمها من تحولات.

– **اشكالية البحث**

طرحت رواية "لا أنام" جملة أسئلة شكلت إشكاليات، نجيب عنها في سياق البحث، وهي:

– كيف أنجز إحسان عبد القدوس العالم الروائي في "لا أنام"؟

– كيف بنى البناء السّردي، ونظّم الوحدات السّردية الأساسية، وأنطقها بدلالات الإخفاق والصراع والإنجاز والمعوّق وغيرها من الأمور ودلالات ذلك؟

– كيف بنى الوحدات الإدماجية فيها سواء على مستوى المؤشرات، أم على مستوى المعلمات ودلالة ذلك؟

– لمَ غلبت الجملة والمقطع، وبدا التشبيه طاغيًا ودلالة ذلك؟

– كيف عرفتنا المعلمات على أمكنة وشخصيات وأعمار ودلالات تلك الأعمار للشخصيات، وأثر ذلك على سلوكها وعلاقاتها الإنسانية والعاطفية في لا أنام"، وما دلالة ذلك التنوع في المعلمات؟

– لمَ سيطرة وحدات الإخفاق على غيرها من الوحدات، ومدى علاقة ذلك بنفسية البطلة ودلالة ذلك؟

– كيف بنى عبد القدوس شخصيات رواية "لا أنام"، وهل جعل بعضها نامية أم مسطحة؟

– كيف بدت هويته، ولمَ غلبت النّفسية على غيرها من الهويّات ودلالة ذلك؟

– كيف تعاملت الشّخصيات مع بعضها البعض، وعلى أيّ أساس قسّمت إلى رئيسة وأساسية وثانوية، وهل كان بعضها للزينة فقط، ودور كلّ منها في العالم الروائي ومع غيرها من عناصر ذلك العالم؟

– بالنسبة للمنظور الروائي من أدّى دور الراوي، وهل تنحّت الراوية ناديا لغيرها من الشخصيات أحيانًا"، وكيف بدا المنظور على المستوى الأيديولوجي والنفسي والزمكاني عند الشخصيات والراوية؟

– ما هي رؤية الراوية إلى العالم؟

– كيف اتفقت مع غيرها من الشخصيات، وأين اختلفت ودلالة ذلك؟

– كيف تمّ بناء الزمن في رواية "لا أنام"، ولمَ غلبت علاقات الترتيب على علاقات التواتر، ولمَ غلب التردد النمطي على غيره من الترددات ودلالة ذلك؟

– كيف بنى عبد القدوس المكان في رواية "لا أنام" بين أليف ومعادٍ ومسرحي، وهل ظلّ على حاله أم تنوّعت أدواره وعلاقاته بالشّخوص تبعًا لأوضاعها النفسية ومراحل سعيها ودلالة ذلك، كيف بدت تقاطبات المكان، وهل ظلّ ضمن دائرة مصر، أم رأينا تقاطبات مع الغرب، وكيف أفرز التقاطب المكاني تقاطبات أخرى ودلالة ذلك؟

– لمَ قلّ المسرحي على حساب غيره؟

– كيف اختفى الروائي خلف شخوصه، وأين ظهر، وما هي الأساليب التعبيرية التي استخدمها كلّ من الراوي والشخصيات ودلالة ذلك؟

– ما الدور الذي أدّته الأشياء والأطعمة والشّراب، ومدى إرتباط ذلك بشخصية شاربيها ومقدميها وإنتاج مصر، ودور ذلك في خدمة إستراتيجيات الرواية ودلالاتها؟

وقد شكلّت كل هذه الأسئلة اشكاليات سنعالجها في معرض بحثنا هذا عن "رواية لا أنام".

– **منهج البحث**

أمّا المنهج الذي اتبعته في بحثي، فهو السيميائي – السردي، مركزّة على نظرية غريماس حول العوامل، ونظرية بارت حول الوظائف الإدماجية، وتسلسل الوحدات، متبعة نظرية اوسبنسكي حول المنظور السردي، ومفهوم جينيت عن التّردد الزمني، وغيرها من نظريات السيميائية السردية.

– **نقد المدونة**

طرحت رواية "لا أنام" تساؤلات تحصل للإنسان في حياته، وركزت على وجود الله، مؤكدة على أنّه الخير والقدرة ومن ينقذ البشر وذلك عبر بطلتها نادية، طارحة جملة أسئلة: لمَ تتخلَ عنا الفضيلة؟ لمَ ينتصر الشّر فينا على الخير، معتبرة أنّ الإنسان صاحب إرادة ضعيفة، فلمَ يحترق بالنار لذنب لم يجنه بإرادته؟ متسائلة عن إبليس وماهيته ولمَ خلق بيننا؟ ومتكلمة على العادات والتقاليد والنفس الآثمة التي بطلتها ضحيتها، طارحة على لسان البطل مصطفى فكرة أنّ الإنسان العابث يتساوى عنده كل شيء ويصبح الجميع سواء؛ فالصالح دفعته الظروف إلى الصلاح، والمجرم دفعته الظروف إلى الإجرام، ويوم تتوحد الظروف لن يكون هناك صالحون ولا مجرمون. وتكلّمت على المجتمع الذي يدفع المرأة إلى المكوث مع زوجها على الرغم من عدم محبتها له، معتبرة أن من لا تحبّ زوجها إن لم تخنه بالسّر تخنه بعواطفها، وأنّ لا زواج ناجح دون حبّ صادقة.

كما طرحت فكرة إمكانية إرتقاء المجتمع مع الوقت، وانتهاء الخيانة، وبناء العائلات على الحبّ، مع ضرورة عذر ظروف الناس التي أوصلتهم إلى سلوك الدرب الخطأ.

كما عدّت الحبّ عامل تغيير للبشر لدرجة الدعوة عبره إلى حبّ كلّ البشر.

وطرحت فكرة الحب العابث الهارب من المسؤوليات، عبر علاقة نادية ومصطفى، معتبرة أنّ الإنسان سيعيش عمره لا يعرف نفسه، ولا يرى غده، ولا يمسك بأمسه فالمشاعر الإنسانية تتغير.

وبيّنت رواية "لا أنام" كيف يرسم الإنسان نفسه، وهو لا يعرفها، ولا يعرف لها حالًا مستقرًا في اليوم والدقيقة واللحظة الواحدة، مظهرة في آن أنّ الحب لا يقاس بالعمر بل بالتّفاهم، وأنّ من تطلّق عقلها وروحها تكبر، وأنّ اختيار الزوج المناسب يحتوي ثورة الأنثى. كما عدّت المجتمع في انتقال عبر الشخصية محمود، وأنّ حبّ الرّجل للمرأة تبدّل إذ كانت تحبّ عضلاته، ثمّ قوّته، فجماله فعقله، وأنّ الزّواج النّاجح هو المبني على استقرار وليس على تهور.

وعمدت الرّواية إلى طرح مفهوم الخيانة الزّوجية، معتبرة أنّ المجتمع لا يعاقب المرأة إلاّ إذا رأى خيانتها. وبيّنت خطأ المجتمع في الحكم، ودفع السّامع إلى الخطأ أيضًا. ونمّت عن عدم قدرة المرء على التّحرر المطلق في مجتمع يتبع بعضه الأصول، مبينة انقسام النّفوس بين متهتكة ومحافظة واسلوب كل منها في التّعامل مع الحياة والقواعد. كما طرحت الرواية تميّز كل فرد عن الآخر في الدنيا بدوافعه ونوازعه، ما يجعل لكل فرد دنيا خاصة به مختلفة عمّا يعيشه الآخرون، فلا يمكن إصدار حكم

واحد على الجميع، معتبرة أنّ الإنسان صنيع ظروف الحياة.

– **العالم الروائي**

بعد الحديث عن هذه الرّواية، نبيّن العالم الروائي لرواية "لا أنام" والذي بدا كالآتي:

إن الوحدات السّردية في رواية "لا أنام" تنوّعت بين وحدات سردية عبّرت عن صراع الشّخصيات وإخفاقها، أو إستسلامها حينًا، وإنجازاتها اخرى، أو محاولاتها الحصول على وسيط في أهدافها. كما كثر بروز المعوّقات لأهدافها. وقلّ الحصول على مساعدة. واتخذت بعضها دور التّعريف. كما نطقت بالخداع وعدم القدرة على كشف الوهم. وكشفت عن تضاد في الشّخوص. وحملت بعضها دلالة الإعتداء الشّر حينًا والتحذير أُخرى. وقلّ الحلم. وحلّ غياب الفعالية عند الشّخصية ليطرح سوداوية الواقع في ظل مجتمع مأزوم.

ومن الملاحظ أنّ وحدات الصراع تركّزت في إبداء صراع نادية بين حبّها التّملك وطفولتها المؤلمة، وفقدانها حضن الأم والصداقة الحقّة والخجل من الوالد الذي لم يستطع تعويض فقد الأم وصراعها بين روحها الشّريرة التي تدفعها إلى الشّر، وتساؤلاتها الوجودية عن الله والفضيلة، وسبب أفعالها، ولمَ نحاسب طالما حياتنا من صنع الله. وطغى الصراع عندها قبل فعل جرائمها، وأثناء شعورها بالألم وبعده، وفي شعورها بالغربة والخجل والتّوحد وعدم النّوم والعذاب الرّوحي والجسدي. وكثرت بعد اكتشافها خيانة كوثر لوالدها، واضطرارها التّستر عليها خوفًا على مشاعر والدها. وكثر نتيجة الأزمات النّفسية وعذاب الضمير. وتنوّعت نتائج الصراع بين المرض والإنطواء ورغبات تحطيم الخصم واستعمال وسائل شريرة للغاية. كما بيّنت ردود فعل الشّخوص على هذه الأفعال، وكيف تعاملت نادية معهم، مظهرة عجز الإنسان أمام ما يحدث معه أحيانًا، وفشله في الخروج من القوقعة النّفسية وتعذيب الرّوح. وبرزت أيضًا في صراع شك أحمد في أمر صفيّة، وشك كوثر في حبّ سمير، وحيرة مصطفى من تصرّفات نادية. وأتت مجتمعة لتدفع السّرد قدمًا، وتنذر بمرحلة جديدة من حياة الشّخوص، وتمهّد إلى تحوّل جذري في مسار الرّواية، مساهمة في آن في جعل القارئ يتأثّر بما يحدث من أمور ويتفاعل مع الشخصيات.

وتركّزت وحدات الإنجاز في رواية "لا أنام" بقدرة نادية على تحقيق أهداف نفسها الشّريرة، وذلك بإقامة علاقة مع المحبين، ثم الضرب على أوجاعهم بعد تعليقهم. وبدا إنجازها في فسخ علاقة والدها بصفية، وذلك لترجع لنفسها مكانة السّيدة الأولى في بيت أبيها. وكان الإنجاز الأهم تخطّيها حب مصطفى، والقفز بعيدًا من غرقها في بحر أفكاره. وساهم الإنجاز في دفع السّرد قدمًا، ومهّد لأحداث لاحقة. وأظهر تغيّر نفسية الشّخصيات ومخططاتها ونقل حياتها من مرحلة إلى أخرى، وشهد على التّغيير النّفسي والحياتي للشخصية، وعبّر عن تبدّل النّفوس البشرية. وأظهر الحياة مراحل والعلاقات يشوبها الصيف والخريف

والأهداف تتبدّل وبين ذكاء نادية وتحويلها الأمور لصالحها.

أمّا بالنّسبة لوحدات الإخفاق، فركّزت على إخفاق نادية في تخطّي ألم الطفولة، وغرقها في وحول نفسها الشريرة، وفقدها القدرة على إحداث التّوازن العاطفي بحياتها، أو تخطّي الحسد، أو حتى جذب اهتمام أمّها، والحفاظ على الرّجل الوحيد الذي أحبت. وأوضحت إخفاق نادية في تخطّي واقعها واستمرارها في القلق، وشعور العدمية، وعدم التّمييز بين الخير والشّر، والإخفاق في إعادة استقرار منزلهم، أو تقبّل كوثر. وأزّمت وحدات الإخفاق السّرد وأخّرته، وأخّرت تطوّر السّعي، ودفعت الشّخصيات إلى الألم، وشعور الخيبة واللافاعلية. كما شهدت على تحكّم القدر بحياة البشر ودائرية الحياة، وإن من يَظلم يُظلم. ونطق بعبثية السّعي وأخبر عن إنتهاء مراحل من حياة الشّخصية وبدء أخرى أكثر تأزّمًا في معظم الأحيان. ومهّد إلى الإخفاق النّهائي المتمثّل بعدم تمكّن نادية من النّوم وعيشها القلق والعدمية.

وبدت وحدات تحمل الاختبار في سعي نادية منذ الطفولة، إلى الإعتماد على النّفس، وعدم تحميل والدها فوق طاقته، وقبل فقدان مصطفى، مؤكّدة حبّها له مهما كان الأمر. وعكس النّضج الذي وصلت إليه ذلك النّضج الّذي خلق من المعاناة والتّجارب، ومن الفقد والإستنزاف الرّوحي والجسدي. وأظهرت أيضًا إيمانها بعبثية الحياة، وعدم ركونها إلى برّ، موضحة في آن سعي الإنسان إلى السّكينة على الرغم من صخب الظروف. وقد دفعت هذه الوحدات السّرد قدمًا، مظهرة نفسية نادية المصمّمة على الوصول، شاهدة على ذكائها، ونمو عقلها مع الوقت وتعقّلها. وبرزت في تحملها خيانة كوثر لأبيها، وفي تقبلها الزّواج من عشيق الأخيرة للحفاظ على حياة والدها وسعادته، مبيّنة في آن سخرية القدر، ناطقة بفكرة أنّ كل ما تفعله من شرّ يرد إليك في أهلك، وأحبتك فإحذر.

ونطقت بعض الوحدات السردية الأساسية بدلالة المعوّق الذي أعاق سير الأحداث قدمًا، وأزّم السّرد أحيانًا، وقلب حياة الشخوص وأعاق خطط الشّخصيات، فكانت حينًا معوّقات نفسية أو عاطفية. وبدت في تريّث الوالد فسخ علاقته بصفية خوفًا على مشاعر نادية وفي نفسيتها التي رزئت بها والتي جعلتها تشعر بالكبر وهي صبية.

ومنعت المعوّقات استقرار حياة نادية وشعورها بالآمان الدّائم، وبطّأت السرد، وبيّنت أزمات الإنسان، وعبثية الحياة، وتبدّل الظروف، وعدم كمال الإنسان مهما كان ذكاؤه. وساهمت وحدات الحصول على مساعدة في تسهيل نجاح خطط البطلة، ودفع السّرد قدمًا، فقدّم مصطفى لها النّصح في قضية طلاق والدها، وساندها عمها في إنقاذ أخيه من النّساء المستغلات. وساهمت هذه الوحدات في تخفيف أزمة الشّخوص وإيجاد الحلول أيضًا.

في وقت ساهمت وحدات التّعريف في تعريفنا على شخصيات الشخوص. ما ساهم في إبراز نفسيتهم وانعكاس نفسيتهم على

تصرّفاتهم وعلاقاتهم بالمحيط، وتأثير ذلك على سير الأحداث.

- **الحدث المركزي:**

يتمثّل الحدث المركزيّ في القسم الأول، بسعي نادية بدافع الغيرة إلى فسخ علاقة صفيّة بوالدها، وسعيها إلى الحبّ وإيجاد السامع في مصطفى، وذلك كتعويض عن طفولتها المريرة وجرائمها. وتنجح نادية في بث الشّك بقلب الوالد تجاه أخيه، وتستعيد مكانتها كربّة منزل، لكنّها تعيش عذاب الضمير بسبب عذاب والدها.

ويأتي الحدث المركزيّ في القسم الثّاني من الرّواية، على سعي نادية إلى إعادة التّوازن لحياة والدها بخطبته من كوثر صديقتها، لكنّ الأخيرة تحبك مكيدة مع سمير عشيقها لسلب أموال الأخير. وتتأزّم الأمور بفرض خطبة سمير على نادية مقابل عدم تصريح كوثر لأحمد بأنّها لا تحبّه. وتصطرع ناديا داخليًا بين حبّها لمحمود الّذي أوشك أن يضيع وبين حبّها لوالدها ورغبتها في كشف المحتالين، وتحقيق النّصر على كوثر وفسخ الخطبة.

في القسم الثّالث تسعى نادية إلى تصويب بعض الأمور، فتقبل خطبة مصطفى لصفية، ورحيل محمود النّهائي من حياتها، ساعية إلى إعادة التّواصل بين الأخوين، وتحقّق ذلك لكنّها تبقى أسيرة القلق وإحساس العدمية، والتّألم من كوثر التي تزداد طغيانًا، والتي يزداد أحمد انخداعًا بها، فتفقد نادية استقرارها، وحياة والدها السّوية، وتعيش العبثية، وعدم الشّعور أو فهم أيّ شيء، وتسعى إلى الهروب من كل شيء. وتصبّ هذه الأحداث المركزية في الأقسام، في حدث مركزي أساسي للرّاوية، وتكمل بعضها بعضًا في حلقات متتالية، ألاّ وهي: سعي نادية إلى الإستئثار بوالدها، وعيش عيشة سويّة مستقرّة نفسيًا، وعقبات ذلك السّعي واسلوبها في علاج أزماتها، وردود فعلها تجاه نجاحاتها وإخفاقاتها. وانتهت بتخبّط شّخصية نادية، واصطراعها وسط أسئلة لا تجد لها إجابات شافية.

محرّكات الوحدات إلى التّشكل في القسم الأول، محرّكات ذاتية وجودية نفسيّة وحياتية، أظهرت رغبة المرء في عيش حياة مستقرة يسودها الحبّ والسّلام الداخلي، وإحساس دفء العائلة. وحرّكت مساعي نادية التي سعت إلى استعادة والدها باحثة عن التّعويض العاطفي، حاسدة صفيّة على حبّ والد نادية لها، ساعية إلى فراقهما. وأزّمت الوحدات بتحقيق ذلك، وحزنت على رحيل صفية ملومة نفسها المعقّدة. ومرضت نادية/ وخفّ حبّ مصطفى لها، وعاشت الوحدة الرّوحية وفقدان السامع.

في القسم الثاني، كانت المحرّكات أيضًا ذاتية نفسيّة حياتية وجودية، سعت خلالها نادية، إلى تحقيق خلاصها الرّوحي، وسعادة والدها عبر إسعاده مع كوثر، معوّضة حاجتها إلى الدّفء الشّعوري عبر محمود وانتظار الزّواج منه. ما دفع السّرد قدمًا، لكن اكتشاف أمر خداع سمير وكوثر، أزّم الصراع لدرجة فقدان نادية لكلّ من أحبّت. وتتحرّك الوحدات إلى التّشكل بسعي نادية إلى تصويب الأضرار التي سببتها

ولو بأقل إنجاز ممكن، فتقبل ارتباط مصطفى بصفية، وتفسخ خطوبتها من سمير، وتترك لكوثر مهمة الاهتمام بالبيت مع بقاء زوج كوثر، أي والد نادية مخدوعًا لكن سعيدًا.

أمّا في القسم الأخير، فقد حرّك المحرّك الأساسي النّفسي الوجودي والحياتي والذّاتي سعي نادية إلى الإبقاء على سعادة والدها مع كوثر، ومتابعة تصحيح أخطائها، وتحقيق بعض خلاصها الرّوحي بإعادة علاقة الأخوين والاحتفاظ بسرّ كوثر، وتقبّل فراق محمود، وتغيير طريقة تفكيرها.

تنتهي الرّواية بتوقف نادية عن البحث عن إجابات عن أسئلتها حول الله والوجود، وتعيش ضبابية المشاعر والمعتقدات والآراء، وشعور العدمية، وفقدان الأهداف، فتثبت بذلك عبثية السّعي إلى تلمّس الحقيقة في هذا العالم الغريب، وعبثية البحث عن كينونة ووجود وهوية حقيقة.

أمّا الوحدات الإدماجية، فهي التي تحيل إلى معنى القصة العام، من غير ترابط سببي في ما بينها. وتنقسم الوحدات الإدماجية قسمين:

– مؤشرات تحيل إلى طبع أو فلسفة أو جوّ أو شعور؛

– والمعلمات، وهي التي تقدّم معلومات مباشرة ترسّخ الواقع في المتخيّل القصصي، وتكون وظيفتها محدودة[1].

وتقدّم الوحدات الإدماجية معلومات عن طريقين: الإيحاء (مؤشرات)، أو مباشرة (معلمات)، وهذه المعلومات تصف جانبًا محددًا من جوانب شخصية معيّنة في القصة، أو تعزّز مناخًا يسود القصّة"[2].

وقد بدت الوحدات الإدماجية في رواية "لا أنام على الشكل الآتي: إذ قد تنوّعت بين وحدات إدماجية مؤشرات ومعلمات.

فتنوّعت المؤشرات بين الكلمة مؤشر، فالجملة، فالمقطع، فالرمز، فالتشبيه.

فأشارت بعض الكلمات/المؤشرات إلى طباع الشّخصيات الأنانية، ونفسيتها المريضة، وعدم تقبلّها للآخر، وتأثير ذلك على المحيط وعلاقتها بالآخرين. وشهدت أخرى على طباع عزيز أخ أحمد، واعتماده على الآخرين، وقلبه الطيب، وروحه المرحة ما سيقرّبه من صفية، ويحدث مشاكل. وشهدت كلمة "البوهيمي" على لا فاعلية الأخير لا مسؤوليته وعيشه على الهامش، مبيّنة الجوّ النّفسي القلق الّذي عاشته نادية جرّاء ذلك، وممهّدة إلى المشاكل التي ستحصل بين الوالد والعم لاحقًا، ناطقة بفلسفة أنّ لا أمل في شخصيات تعيش على هامش الحياة، نحو: "كان بوهيميًا في حياته يسخر من كل شيء حوله"[3]. وشوق القارئ لمعرفة ما ستخلقه تلك الشّخصية من عقبات. وعبّرت أخرى عن رجعية والد نادية، وتحجّره وطبعه الّذي يحيا في التّقاليد، وطبع نادية المتهوّر النّقيض للوالد، وجوّ العبث الّذي يشدها إليه، ويمنعها الوالد عنه. ونطقت بفلسفة أنّ الأبناء خلقوا لزمان غير الآباء.

كما أوضحت بعضها تأثير مصطفى على نادية، فهو المخدر لضميرها وشرورها وكلّ ما مرّ بحياتها. ما أوضح فلسفة نادية

في الحياة الّتي ترى في الحبّ شفاء الجراح والأحزان.

وكثرت الكلمات الّتي ركّزت على وحدة نادية وعذاباتها، واصطراع عقلها وعاطفتها وتشفيها أحيانًا من خصومها، وأحيانًا غياب الحلّ.

وأتت بعض الجمل مؤشرات لتشهد على حبّ الشّخصية لأخرى، مثل: حب أحمد لصفية، لكن طبعه المتمسّك بالعادات والشّرف، مبيّنة فلسفة الزّواج المبني على الإخلاص والمودة الحقة. ونطقت أخرى بصراع نادية من سرّها الّذي يأكلها، أي تسببها بفراق صفية ووالدها. ونمّت عن عدم قدرة نادية على إخبار أحد بسرها، وجوّها النّفسي المتردّي الذي عاشته. ما يظهر غرائبية النّفس الإنسانية وعبثية الخلاص. وبيّنت المقاطع طباع الشخصية؛ ذكاء وشر نادية، وحنكة كوثر، وانتهازية محمود ومسؤوليته، وغرائبية بعض أفكار مصطفى وتقبلّه لكل شيء، وطيبة الوالد وانتهازية سمير. كما بيّنت الجو النفسي المصطرع الذي عاشته ناديا بين شرورها وأفعالها وآلامها، وأخطائها، وأوضحت فرح كوثر وسعادتها بتعذيب ناديا واستغلال الوالد. نحو: في وحدتي كنت أتعذّب.. كنت أحسّ أنّي أعيش في حداد"[4]. وركّزت الجمل كذلك على مواضيع الزواج، والحب، والنفس، والله، والخطيئة، والشر، وإبليس، والعائلة.

أمّا التشبيه، فتركّز على تشبيه نادية نفسها بالقطة المحبوسة، وذلك بعد أن اكتشفت خيانة كوثر مع سمير لوالد نادية، ولم تتمكّن من فعل شيء. ما أظهر الجوّ المتردّي الّذي عاشته نادية، وطبعًا المتناقض بين الشعور أنّها قوية حينًا وضعيفة أخرى.

أمّا النّار التي أكلت ذيلها، فتعني خطّة كوثر بتزويج نادية لسمير، والاستمرار في خداع الزّوج. وطرح التّشبيه فلسفة مفادها: أنّ الصاع يردّ في الحياة مرتين للظالمين.

وأتى تشبيه نادية أصابعها بالمسامير من التشنج ليظهر الألم الناتج من إجبار كوثر لنادية على الزّواج من سمير وفقدانها الشّعور بأطرافها نتيجة خداع كوثر لها. ودفع ذلك السّرد قدمًا، فجعل من نادية تصغي لنداء روحها الشّريرة، وتسعى إلى تدمير كوثر، طارحًا في آن فلسفة مفادها: أنّ حتى الشّرير يتألّم، وله همومه وأحلامه، وحتى الخاطئ يعيد التفكير بحساباته، وينظر إلى الآخر وفق مجريات حياته.

والرمز هو "المجال الذي يتّم عبره اختصار واقع ما، وإطلاقه في آن معًا، وفي كونه معبّرًا في هذا التّحول الذي يؤديه عن رؤية ووضع خصوصيّين ومحدّدين. هنا يكمن خطره في آن"[5]. وأكدّ الرّمز غضب والد نادية من علاقة عزيز وصفية، ووصف نفسه بالحليم الّذي إن غضب مشكلة. وجاء ليشهد على صراع وغيرة الزّوج. وأتى الرّمز أيضًا ليوضّح أنّ علاقة أحمد وصفية إلى نهاية، فالطبق أي الزّواج والثّقة التي انكسرا لا يرمما يومًا.

أمّا المعلمات، فركّزت على أعمار الشّخصيات؛ فبدا عمر نادية وتنوّع إدراكها عبر المراحل، وعمر مصطفى وصفية

أحمد وكوثر. وركّزت على عمر المراهقة عند نادية وكوثر، مقابل عمر النّضج عند صفيّة ومصطفى وأحمد. وبيّنت كيف يؤثّر العمر على التّواصل الفكريّ والعاطفي للشّخوص. كما عرّفتنا على البيئة المصريّة بأهلها، وعادات طبقتها البرجوازية ونمط حياتهم، وإسلوب عيشهم ومعتقداتهم وأفكارهم عن العائلة والزّواج والطلاق والإخلاص، والخيانة، والحب المتحرّر. وبيّنت المعلمات البيئة المصرية متّخذة مصر والإسكندرية والقاهرة والنّازلية معلمات، مبيّنة المناطق المصرية، ذاكرة بعض محالها مثل: الحلاق جروبي، ومسارحها مثل: سميراميس، وشطآنها، مثل: سيدي بشر بالاسكندرية، وفنادقها كالأوبرواج، ومينا هوس. كما بيّنت جغرافية مصر وشوارعها، وأطلعتنا على إسلوب حياة طبقة معينة منها وهي البرجوازية، مركزّة على أفكار هذه الطبقة وطرقها في اللّباس، وحبّها للسّهر وحبّ الحياة والبذخ. كما ساهمت في تجذير الواقع في الخيال. وأوهمت القارئ بصدق الحدث، وأوحت بواقعية المتخيّل.

طوّر غريماس نظرية بروب التي تعدّ الوظائف دوائر أفعال، و"بنى عليها ما يعرف بالعوامل الستّة[6] والتي تناولت علاقات الرغبة وعلاقة التواصل وعلاقة الصراع.

وبالنّسبة إلى البرنامج السّردي الأساس للبطلة: رغبت المرسل نادية بالإبقاء على موقعها في البيت كآمرة ناهية في حياة والدها، مدفوعة بنفسيتها الإستحواذية، وحبّها للتملك، وفقدها عاطفة الأمومة بفعل طلاق والدها وأمها. وكان المرسل إليه يوجّه إلى الذّات نفسها، لكن هذا المسعى قوبل بعوامل مساعدة أبرزها: ذكاؤها، ومساندة عمها، ودادا حليمة، لكنّه قوبل بعوامل معاكسة: كزواج صفية بوالدها، ثم زواج كوثر بوالدها، وفرض خطبة سمير على نادية كي تحمي زواج والدها الثاني من كوثر. وحققت نادية موضوع رغبتها بإعادة والدها إليها، وتحسين علاقته بعمها، وضرب كوثر بسمير، لكنّها ظلّت تتألم لفقد حبيبها محمود منتقدة عدم مسامحتها له، ومعتبرة نفسها ضحيّة نفسها الشّريرة والظروف وتحكّم القدر.

وعادةً ما تتكون "الشخصية الروائية من مجموع الكلام الذي يصفها، ويصوّر أفعالها، وينقل أفكارها وأقوالها[7]، وهي "كلّ مشارك في أحداث الحكاية سلبًا أو إيجابًا، أمّا من لا يشارك في الحدث، فلا ينتمي إلى الشخصيات، بل يكون جزءًا من الوصف"[8].

وتنوّعت الشّخصيات بين رئيسة وأساسية وثانوية، وتنوّعت هوياتها النّفسية والأخلاقية والثّقافية والأيديولوجية والاجتماعية. وتركّزت الأساسية على نادية والتي بدت فتاة جميلة، لكن شريرة لا أخت لها ولا ناصح، تعاني الحسد، وحبّ التّملك وذات نفسية سلطوية لا تهتم لمشاعر دادا حليمة، ولا لحبّ والدها لصفية، معقّدة نفسيًا. سلمت نفسها دون روابط زوجية، وتساءلت عن سبب سيطرة الرذيلة عليها، وعن ذنب نفسيتها المعقدة. كانت ذكيّة صاحبة خيال

واسع، ونفسيّة تتعذّب من الأذيّة بعد الأذيّة. وهي فتاة أكبر من عمرها في أساليب الغواية، وذات هويّة أخلاقية مأزومة، لكنّها صبورة تجاه مخططاتها، ولم تغنها المادّة عن الرّوحي، وهي ضحية المجتمع والعادات. أمّا بالنّسبة إلى مصطفى، فكان في السّادسة والثلاثين من عمره، جميل، له علاقات بالنّساء، يحترم الظروف التي تؤدي بشخص إلى الشّر، ويحترم الحبّ كثيرًا، ولا يهتم بشرع، يحبّ الفن، ويدرس الفلسفة، وله آراؤه الخاصة في المجتمع والزّواج والحب، ويقدّر ظروف الجميع، ولا يحكم على أحد بالسّوء، ولا يهتمّ بمبادئ وتقاليد ويداري المجتمع، ويطلق العنان للحب. وهو واضح وبسيط، وصريح، وصادق، ويقدر عقل المرأة وحديثها وجمالها. أحبّ نادية وأثّرت آراؤه بها، لكن لم يستطع أن يمنعها عن الشّر. كما نرى أحمد الأب الحنون الّذي قدّم لابنته كلّ ما يستطيع والد أن يفعل. وكان متمسّكًا بالعادات، كارهًا التّكلم على أعراض النّاس، ودودًا، لكنّه انقلب بعد طلاقه من صفية، وأصبح سكيرًا. أحبّ أحمد كوثرًا، وعاش مخدوعًا بها.

من الشّخصيات أيضًا، صفيّة ربّة البيت المتواضعة والتي كانت بمثابة أم لنادية، لكن الأخيرة نبذتها. أما كوثر، فتحوّلت من الفتاة الوديعة إلى الفتاة المخادعة التّواقة إلى المال، والمستعملة للحب لمآربها. وهي من نموذج النّساء المتزوّجات الخائنات لرابط الزّواج المقدس، والمؤمنة بالحبّ العابث، ورمز الانحدار الأخلاقي، والتّهتك باسم الحبّ، والتّلذذ بأوجاع النّاس.

ولن يسعنا تناول كل الشّخصيات هنا، فأكتفينا بمن كان لهم أثر أساسي ورئيس على أحداث الرّواية. وخدمت إستراتجيتها ودلالاتها.

– آلية الصراع وتحقق الذات:

عاشت نادية صراع طفولتها القلقة، وكثرة جرائمها، وفقدها حنان الأم، وسعيها إلى الإبقاء على حنان الأب، واصطرعت داخليًا بقدوم صفية المتّزنة التي أصبحت الآمرة بالمنزل، فحاولت قتل ثقة الأب بزوجه، وفسخت ذلك الزواج، وشككت الأخ بأخيه، لكنّها لم ترتح، وعاشت عذاب الضمير، ولم يدعمها مصطفى في كره صفية، واتهامها أنها خائنة، وعدم سماع الأم لها. ويخفّ الصراع بتزويج نادية رفيقتها كوثر من والدها، لكنّه يتأزّم مجدّدًا بعد معرفة نادية باتفاق كوثر وسمير على مال والدها، وإجبار كوثر إيّاها على خطبة سمير مقابل سعادة أحمد. وتفقد ناديا حبّ محمود بعدما علم بخطبتها. وينتهي الصراع عندها بتمكّنها من ضرب اتفاق المحتالين، وفسخها الخطبة، وتحمّل فقدها لمحمود على مضض، وفرحها بعودة وئام الأخوين. ونطقت الرواية بأن للكذب نهاية، وكلّ الروابط قد تتفكك إلاّ رابط البنوة والأخوة فإنهما إلى الأبد، كما أنّ حبل الكذب مهما طال، قصير، والزواج مسؤولية، والحبّ العابث مصيره الانتهاء.

وبدا الزّمان في رواية "لا أنام" من خلال علاقات التّرتيب والديمومة والتّواتر. وتعرّف علاقات الترتيب على أنّها "التقنيات السردية التي بإنزياحها ضمن السرد تشكّل الزمن

الروائي الذي يفارق الأحداث"[9]؛ ففي علاقات الترتيب رأينا الاسترجاع الذي يعني "استعادة ما حدث في الماضي، ما سبق أن حدث"[10]، وعرّفنا على ماضي نادية وعلاقتها بوالدها، والغنج الذي تلقّته وأنتج استهتارًا بمشاعر النّاس، وأنانية وحبّ تملّك، وغرورًا، وشكًا بحكمة الله، وتخطي للعادات والتقاليد، ورضوخًا لسياسة القلب، وتطلعًا نحو السّيطرة. كما أوضح حسدها من رفاقها، وبيّن الجرائم التي فعلتها نادية بحقهم، وأثر ذلك في تكوين عقدها النّفسية. كما بيّن الاسترجاع تصرّفات نادية تجاه من دخل من شخوص على حياتها وحياة أحبتها. وأوضح العمر الّذي بدأت به مشكلتها عمر الطفولة والحنان. وأظهر طبائع الأب والأم، وما أدّى إلى انفصالهما. وكشف سبب حقد نادية على كوثر والحياة الجميلة التي عاشتها نادية مع عمّها ووالده مع عدم القدرة على إخبار الوالد أيّ شيء. وبيّن العلاقة الوثيقة بين الأب وصفية، والأب وأخيه والتي ستتأزم، ثم تعود فتنحلّ، مثبتة أنّ رابط الأخوة أقوى من أيّ رابط. وركّز الاسترجاع على ندم الشّخوص حال اكتشاف نادية كذب كوثر، وتعذّب نادية بجرمها وتسترّها وخديعة والدها ونزف كرمتها تجاه كوثر.

كما بيّن السّبب الرّئيس وراء خطبة سمير لنادية، والرّاجع إلى الاتفاق الذي عقد بين سمير ونادية على مال الأبنة والأب. وطرحت الاسترجاعات مفهوم الخطيئة، وتساؤلات النّاس عن القدر والحساب، وأهمية الظروف وقدرتها على صوغ الشّخصية ودور الشّخصية في خلق الحياة السّليمة وتحقيق السّعادة، وتطرّق إلى وضع المجتمع وحكمه على أخطاء البشر، طارحًا في آن تساؤلات حول الخيانة الزّوجية وعقابها والحّب وقوانينه، ودور الشرع في تقييد تصرّفات المحببين. وعرّف بنفسية الشّخصيات كنفسية مصطفى وأفكاره والمنطق السّلس عنده الذي ساهم في نصح نادية وتوجيهها.

وبيّن الاسترجاع كذلك طبع نادية الحساس على الرغم من شرورها والجوّ النفسي الذي عاشته جرّاء خداع كوثر لها، وضبابية الحلّ أمامها عندما يتعلّق الأمر بالأهل. وشهدت على فلسفة مفادها أنّ المرء مهما عدّ نفسه داهية، فهناك أدهى منه، نحو: "أمسكتني من أرق وأضعف نقطة منّي وبدأت تعذّبني"[11].

أمّا الاستباق "ويعني استشراف أحداث لاحقة لبدء زمن الرواية"[12]. وقد مهّد إلى انتهاء علاقة أحمد وصفيّة ودمار الزّواج الجميل، مبيّنًا طبيعة العلاقات الإنسانية وحساسيتها إذما دخلها الشّك. كما مهّد إلى إنهيار علاقة نادية ومصطفى وحزنها وقرارها أن يبقى مصطفى عزيزًا على الرغم من فراقهما. ونطق بقرب خيانة كوثر لوالد نادية، وما سيتبع تلك الخيانة من مشاكل وآثرها على حياة نادية والعائلة. كما أوضح مكوث نادية في ضياعها، وضرورة التّواصل الرّوحي بين الآباء والأبناء، وغرق نادية بالخطأ أكثر، وفقدانها المعين والتواصل مع الأم، مظهرًا طبيعة الأم وممهّدًا إلى مأساوية نهاية نادية. ودفع

السّرد قدمًا وأزّم الأحداث وكشف النّفوس ونطق بدلالات الرّواية.

وعرّفت المناجاة على أنّها "خطاب آحادي لشخص يكلّم نفسه، وقد يفكّر بصوت مرتفع دون أن يحكي. ونمّت المناجاة بشكل عام، عن ذكاء نادية وحنكتها وقرارها عدم كشف مخططاتها للآخرين (كلامها مع نفسها أنّها ستدّعي زيارة الخياطة). ما يظهر قدرتها على صوغ الأكاذيب لمقابلة مصطفى، ومدى خيالها الواسع، وعدم اهتمامها بالرّأي العام، ومدى خطورة ما يجول من أفكار في عقول المراهقات. ونمّت المناجاة عن اعتقاد الشّخصية بأنّ السّعادة يجب أن يشعر بها الجميع، فكما الأب سعيد، فهي يجب أن تكون سعيدة مع حبيبها. وأوضحت إيمان نادية بالسّعادة المتحرّرة من القيود والضوابط الأخلاقية والاجتماعية. وطرحت بعض المناجاة معاناة ناديا على أثر جرائمها ومعاناتها من مكيدة كوثر، وصراعها كيف ستخبر والدها بخيانة كوثر أم لا. كما بيّنت ثقتها بنفسها بأنّه لا يمكن إلاّ أن تحبّ مصطفى، ما أوقعها بمشاكل لاحقة، وأثبت قدرتها على الخروج بسهولة من مصطفى لاحقًا. وبيّنت حبّ نادية المختلف لمحمود، وقرارها المحافظة عليه. ما أظهر أنّها أصبحت أكثر تعقّلًا ومسؤولية، وإحساسًا بأهمّية الزّواج السليم. وطرحت بعض المناجاة تساؤلات نادية حول الحياة والله والنّفس المعقّدة، والخطيئة والفضيلة، والزّواج والخيانة والشّخصية، مبيّنة عدم حصولها على إجابات لأسئلتها، وعبثية ما وصلت إليه، وجوّ العدمية التي عاشته، وأنّنا أحيانًا نكون ضحية الظروف وضحية أنفسنا وسلوكياتنا.

كما بيّنت إحساسها بالجرم الّذي فعلته نادية بحقّ كوثر، والذي أنتج انتقام كوثر من والد نادية، ودمار حبّ نادية، وكل تلك المشاكل ما أشار إلى حزن نادية وعذابها وبيّن فلسفة انّ كما تؤذي تؤذى ولو بعد حين، نحو "أجرمت يوم فرّقت بين كوثر وحبيبها... وأجرمت يوم فرقت بينها وبين أبي"[13].

أما بالنّسبة للتّضمين، فقد تمّ تضمين بعض الأحاديث النّبوية عن أهمية الحلم والحذر من غضب الحليم، وذلك في إشارة إلى ضرورة الحذر من غضب والد نادية كونه يشعر بوجود علاقة بين أخيه وصفية على الرغم من براءة الأخيرة. كما تمّ تضمين قصص من خارج الرّواية لتساعد نادية على إيصال أفكارها لوالدها بأن صفيّة تخونه. وضمّنت الرّواية الحديث عن فيلم جازلات لانجريد برجمان في محاولة من والدة نادية تخفيف شعور ابنتها أنّها السّبب في فراق والدها وصفية. كما تمّ تضمين بعض الأمثال التي تتحدث عن أن الطبق المشروخ لا يعود ثانية، ما يعني أنّ علاقة الأب وصفية لن تعود. وخدم التّضمين استراتيجيات الرّواية وأهدافها.

أمّا علاقات الديمومة، فرأينا أن الرّواية لخصت الأسباب التي أدّت بنادية إلى حالته الحالية، وكيف أنها وصلت إلى إحساس العدم، وحياة اللاهدف والملل والفراغ، وعبثية السعي، ناطقة بأنّ كلّ شيء

في الحياة ضبابي، ونحن مسيرون مأزومون لا يمكننا فعل شيء، فكلّ شيء مقدّر من قوى عليا علينا. وقد عرّفنا التلخيص كذلك على ماضي الشخوص، ولخّص مراحل أساسية من السعي ودفع السرد قدمًا.

في وقت عرض الحوار أفكار مصطفى ونادية حول الحياة والحبّ والزّواج والخيانة وعلاقة الرجل بالمرأة. وبيّن الحوار أفكار مصطفى عن التّساوي بين البشر، وعدم الحكم على الأفراد بشيء. وأوضح نزوع مصطفى نحو الأفكار الجريئة، موضّحًا موقفه من الحبّ الذي لا يخضع لشرع، والذي عدّه كغيره من الفضائل، معتبرًا أنّ المجتمع من يدفع إلى الخيانة والإنسان ضحية المجتمع، وعندما يتغيّر المجتمع مستقبلًا سيتغيّر كل شيء. وبيّنت حوارات نادية ومحمود شخصية محمود المتزنة واهتمامه بمستقبل الأولاد، وطبعه المحب وتفكيره بالمستقبل. ونطقت حوارات الأب مع نادية حين تزوّج كوثر وأصرّ على تزويج نادية بسمير، تأثّر الأب بالمجتمع وارتهانه لامرأة داهية. كما بيّنت الحوارات طبيعة كوثر ونادية وشرّ كوثر. ومهّدت إلى تدهور علاقة الاثنتين. وعرّفتنا الحوارات عمومًا على نفسية الشّخوص والتّردي الأخلاقي الذي وصلت إليه المجتمعات من تخطّي للعادات، وضرب للأسر وتفكك للزّواج، وطمع وقلة تواصل روحي بين العائلات مع الإصرار على ضرورة بناء جسر التّواصل دافعًا السرد قدمًا.

وجاءت الوقفات لتصف لنا الشخصيات كنادية وصفية ومصطفى، نحو: "كان يرتدي حلّة سموكنج ساحرًا جذابًا غامضًا مثيرًا"[14]، فبيّن الوصف كيف ستنشد نادية إلى مصطفى، ويهوسها حبّه، وما سيتبع ذلك من أثر على حياتها وتفكيرها ومستقبلها. كما تمّ وصف وكوثر ومحمود، مظهرة في ذلك صفاتهم الجسمية وهويتهم الاجتماعية والنّفسية والثّقافية والأخلاقية، موضحة طبعهم، وملقية الضوء على ما سيحدث معهم لاحقًا، وكيف سيكون تصرّفهم. وساعدت كذلك على معرفة طبع صفيّة الهادئ. ما سيظهر قدرتها على التّأثير بالمحيط. ووصفت الوقفات جمال كوثر ولفتها الأنظار ما سيوضّح الأثر الذي ستتركه في ذات والد نادية، وما سيتبع ذلك من مشاكل.

كما وصفت لنا الوقفة المنازل، مثل: منزل أحمد في القاهرة، وبيت العزبة، وشقة مصطفى، ممهّدة إلى ما سيحدث لاحقًا فيهم من أحداث، فبيت العزبة الفاقد للطلاء سيشير إلى إنتهاء علاقة صفية وأحمد، وشقة مصطفى ستشهد على الحبّ الجارف. وأوضحت الوقفة الأمور وسهّلت السعي.

أمّا القفزات ما سيحصل لنادية بعد دخولها المدرسة الداخلية بسبب طلاق والدها وأمها، ولتمهّد إلى ضرورة زواج الأب، وما سيتبع ذلك الزّواج من مشاكل وغيرة وحب استئثار عند نادية، مشيرة إلى وئام الابنة والأب واعترافها بجميله، وحبّها الاحتفاظ به. ومهّدت أيضًا إلى اللّقاءات المتكرّرة التي ستحدث بين مصطفى ونادية، والحبّ الجارف الّذي سيولد، مظهرة عدم تواني البطلة عن أيّ شيء للحصول على

حبيبها. وأتت أيضًا لتشهد على تدهور العلاقة بين صفية ووالد نادية بعد دخول الشّك، ممهّدة إلى فراقها النّهائي، وعدم تأثّر نادية لرؤية النّاس تظلم بسببها. وأزّمت القفزات السّرد، وأقلقت نادية، وأوقعتها بعذاب الضمير، خصوصًا بعد أن بدأت كوثر تجاهر بخيانة والد نادية أمامها وبحبّها لسمير، دافعة الأحداث قدمًا، وموقعة الشّخصيات بالصراع النّفسي، وقرب انتظار الهاوية، مظهرة حنكة كوثر ودهائها. كما بيّنت القفزات عبثية السّعي إلى عيش عيشة سليمة في ظل سيطرة القدر وتحكّم العبث بالمصير.

وتقسم علاقات التردد في الرواية ثلاثة أقسام وهذه الأقسام هي: التّردد الإفرادي حيث يكون الخطاب وحيدًا، يحكي مرّة واحدة ما جرى مرّة واحدة. وهناك التّردد التكراري، وهو خطابات عديدة تحكي حدثًا واحدًا. أمّا التّردد النمطيّ فيحكي مرّة واحدة أحداثًا كثيرة متشابهة أو متماثلة"[15].

ونمّت علاقات التّواتر وبالأخص التّردد النّمطي عن قوة علاقة نادية بمصطفى والتي ازدادت يومًا بعد يوم، وكأنّه سكنها فشعرت بعلاقتها معه عن التّعويض عن غياب الصداقة والنّصيحة الحق، مبيّنة تأثير مصطفى المطلق بها فكريًا وجسديًا ونفسيًا، وتأثيره على نظرتها للمجتمع ومعوّضًا عن واقعها المذري. وساهم تردّد صفية اليوميّ للاهتمام بالعم إلى مساعدة نادية على حبك مكيدتها، وتفريق أبيها عن صفية، كما بيّنت رتابة الحياة التي عاشتها بعد فراق والدها وصفية، وكيف أحسّت بالألم والذنب وعاشت المرض. كما أوضحت رتابة الحياة التي عاشتها نادية بعد فقدها مصطفى، حيث البكاء على ماض لن يعود، وحيث المرض والوجع والركود والعجز الجسدي.

ويأتي التّردد التّكراري ليؤكّد فكرة إدمان نادية على مصطفى، وما سيتبع ذلك الإدمان من تغيرّات نفسيّة وفكرية وعاطفية نحو: "كنت قد أدمنت على مصطفى، أدمنت رقته، وأدمنت بساطته وصراحته، وأدمنت بقاءه، وأدمنت حيرتي فيه وغيرتي عليه"[16]. وبرز التّردد الإفرادي في حادثة طرد الأب لصفية، وحادثة إلتقاء نادية بمصطفى للمرّة الأخيرة، وحادثة إعلان خطوبة نادية وسمير، حيث أقنعت كوثر نادية أنّ الحبّ شيء، والزّواج شيء آخر. ونمّت هذه الأحداث عن تحوّلات جذرية في حياة الشّخصية، وشهدت على قوّة القدر على إرادة البشر، ووقوع الإنسان ضحية أفعاله ونواياه أحيانًا.

- **الرّاوي موقعه وعلاقاته:**

ويؤدّي القص راو من داخل الحكي. وهو الرّاوي المشارك في الأحداث والشّاهد عليها في آن وهي هنا نادية، مسترجعة ما حصل معها من أمور في حياتها، وكيف كانت ردود فعلها تجاه هذه الأحداث، مستعملة صيغة الأنا لإضفاء مسحة من الواقعية على أحداث الرواية، معبّرة عن تساؤلها حول قضايا أثارت فكر الإنسان حول من هو الله؟ وما هي الفضيلة؟ وما علاقة الرّوح بالجسد؟ متطرّقة إلى قضايا حياتية، مثل: ضرورة مراقبة الأهل للأولاد،

وضرورة تأمين السّامع لهم، مبيّنة كلّ ما تعرّضت له من ألم، ناقلة وجهات نظر الشّخوص حول قضايا طرحتها أو طرحوها هم، سامحة لهم أحيانًا بالتّعبير عن أفكارهم وتوجّساتهم وأحلامهم، صارخة بحقيقة أنّ الواقع لا يتغيّر مهما تعبنا، مؤكّدة حضورها من خلال الاعتراض على بعض الأحداث وتصرّفات بعض الشّخوص ككوثر. وأحيانًا تمكّنت من المعرفة أكثر ممّا تعرفه الشّخصية نفسها. وأحيانا فهمت مشاعر الشّخصيات وأحزانها، ولكن لم ترحمها. وسمحت الرّاوية أحيانًا للشّخصيات بنقل أفكارها وآرائها تجاه ما يحصل معها مثل كلام مصطفى ونادية، فسمحت لها بالتّعبير عن صراعها النّفسي ومحاولاتها تحمل اختبارات الحياة.

وبالنّسبة للمنظور الرّوائي على المستوى الأيديولوجي، فقد رأينا إيمان البطلة نادية بعبثية السّعي في الحياة، إذ أنّنا صنيعة الظروف، فالحياة بنظرها غابة تسودها شريعة الغاب، والإنسان يحيا القلق الوجودي منذ ولادته وتحيطه الشّعور بالعدمية، معتبرة أنّ الإنسان صنيعة نفوس معقدة ومؤمنة أنّ العبث مسيطر مهما امتلك الإنسان الحرّية والذّكاء يفشل أمام مسيرة الحياة الصاخبة مهما انتصر مؤقتًا. وأثارت الراوية نادية مسائل متعددة حول أفكار المراهق، وما يمرّ به من مشاكل، وضرورة حضنه، وخطأ تدخل الأهل بالزّواج، وخطأ الإفراط في إعطاء الأولاد العاطفة، مصرّحة بتبعات تعدّد الزّوجات، وعدم قدرة أحد احتلال مكان الأم. وبرزت رؤية الشّخصية مصطفى إلى العالم، فرأى أنّ الركون للعقل أهمّ من العاطفة والتّصميم يوصل إلى نتيجة جيدة، وأنّ الفتاة هي من تخدر نفسها بالحب. وعدّ محمود الزّواج مسؤولية.

وقد "يتخذ المؤلف شخصية محدّدة قناعًا، ويبني خلالها العالم السردي وفاق وجهة نظر هذه الشّخصية، وعندئذ يوصل كل شيء إلى المتلقي عبر هذه الشّخصية، وهذا ما يسمّى بوجهة النظر الذاتية، أو أنّ المؤلف يكون حاضرًا في النصّ، وصف ما يقع في المسار السردي من شخصيات وأحداث وأمكنة على نحو موضوعي وهذا ما يسمّى بوجهة النظر الموضوعية"[17].

وقد رأينا في "لا أنام" هيمنت وجهة النّظر الذّاتية للشّخصيات والراوية سواء تجاه بعضها البعض، نحو "الإنسان الوحيد السعيد في بيتنا هو أبي.. وأنا لا أنام"[18]، أو تجاه الأمكنة والأحداث. وقد رأينا هنا كيف نظرت نادية إلى والدها على أنّه السعيد كونه مخدوعًا وهي عالمة بحقيقة كوثر منطلقة من آلامها وأحزانها وإحساسها بالخيبة وضياع قدرتها على حبك المكائد. كما نظرت إلى بيت والدها على أنّه مكان الخيبة والخداع ودمار حبّها من محمود بعدما أجبرت على سمير. وعدّت نادية حدث زواج صفية تهديدًا لمكانتها في المنزل. ووسمت محمود بالمتّزمت بعد تركه لها بسبب خطبتها لسمير. وكثرت النظرة الذاتية للأمور، وإلى الشخصيات والأمكنة على حساب النّظرة الموضوعية.

أمّا المنظور على مستوى الزّماكاني فكانت الراوية نادية تعيش زمنها النّفسي

الخاص. أما على صعيد الزاوية الزمانكية العامّة التي أطلّت الشخصيات منها، فبدا زمن الحفلات الساهرة في الفنادق زمن البرجوازية الساهرة على أنغام الموسيقى والرقص واللباس الفاخر واهتمامات "البرستيج"، زمن عيش الأسرة التّضعضع وفقدان التّواصل الحق بين أفرادها، زمن البحث عن الذات والهويّة، والإجابات المحيّرة حول القدر والنّفس والثّواب والعقاب. زمن ضياع الإنسان وملله. زمن الشّخصية المريضة حيث الإخفاق والغيرة والطعن بالمقربين. ونظرت الراوية إلى المكان إلى البيت الذي عاشت طفولتها فيه، فرأته مكان المرض والتّوجس والنزول من مرتبة الملكة إلى عيشة المعاناة والصراع.

أما بالنّسبة للمستوى التعبيري في الرّواية، فقد طغى الحوار الثّنائي بين الشّخوص، وبالأخص بين مصطفى ونادية ومصطفى ومحمود. وأتى نتيجة إخفاقات متلاحقة، وتوجسات وأسئلة داخلية. كما برز السّرد التّصويري في تصوير لقاءات نادية بمصطفى. وكثر الحوار الذّاتي وبالأخص عند نادية. وعبّر الخطاب المباشر عن وجهات نظر في القضايا الحياتية واستخدم السّرد الخبري والاسلوب غير المباشر.

أمّا بالنّسبة للأمكنة، فتنوّعت بين أمكنة أليفة قدّمت للشّخصيات الحبّ والدفء، مثل: شقة مصطفى. وعوّضت عن غياب الحنان الأسري، وساعدت نادية على النّضج الفكري والتّفكر بأمور الحياة، ووسّعت قدراتها العقلية، وجعلتها تفكّر بشكل أفضل في الحبّ والزّواج والخيانة والشّر والخير والظروف التي تصنع البشر. وقدمت شقة مصطفى لناديا شعور الأمن والحبّ العابث والثّقة بالنفس. كما كشفت لها حقائق البشر، وكانت مسرح علاقتها بمصطفى، وعوّضت عن حالات الغيرة التي انتابتها تجاه زوجات والدها. كما كان الشاطئ بالإسكندرية مكانًا أليفًا أحسّت نادية فيه بأُنوثتها، وتعرّفت على مصطفى وروّحت عن نفسها مع الفتيات، وطبقت مخطّطاتها تجاه كوثر ومصطفى. وكان مكان التّلاقح الفكري والنّقاش حول الزّواج والطلاق من المطلقات. كما كان بيت أحمد مكان الفرح والمرح مع العمّ.

أمّا الأمكنة المعادية فتنوّعت ومنها: غرفة نادية التي عانت فيها لوحدها الوحدة والتّوحد واللإنزواء وحبّ الهروب من الواقع. وعانت نادية في غرفتها صراع أسئلتها الوجودية، وتشكيكها بكلّ شيء. وهي المكان التي فتحت شعور الشّخصية على أمور قبل عمرها فآذتها. وكان مكتب المنزل المكان الّذي دمّر زواج أحمد. وسعّرت جدران البيت الأليف لاحقًا ضمير نادية تجاه صفية، مثبتة أنّ لا أهمية للغنى أمام راحة البال. وكانت العزبة مكانًا معاديًا شكّل شكل المحكمة الّتي تريد أن تستنطق المجرمين ليقرّوا بأفعالهم، ومكان الحوار المشحون بين الزّوج وزوجه وعزيز. وشكّلت بعض أمكنة الرّواية مسرحًا لتنقّلات الأبطال فلم تؤثّر بهم مثل: الإسكندرية والنّازلية ولندن وأمريكا ومصر الجديدة. وأضفت الواقعية على الأحداث، وجذّرت

الواقع في الخيال، وساهمت في تفاعل القارئ مع المكان.

أمّا بالنّسبة إلى تقاطبات المكان، فقد تقاطبت أمكنة رواية "لا أنام" بين أمكنة حملت الحبّ للشّخوص، مثل: شقة مصطفى، وشاطئ سيدي بشر، وأخرى شهدت صراعات وخيانات، وتفكّك أسري مثل بيت أحمد. وأفرزت أخرى تقاطبات ثقافية واجتماعية وطبقية، مثل بين فندق الكونتنتال وفندق سميراميس وشقة سمير من جهة، وبين المكتب الذي اختاره محمود لحياته اللاحقة في لندن من جهة أخرى. وظهر التّقاطب كذلك بين حياة الغرب وحياة الشرق، طارحًا الاختلاف المناطقي والحياتي والاجتماعي، ناطقًا بفكرة أنّ الشّرقي مهما تغرّب، فحنينه إلى وطنه وفتيات وطنه.

وتتنوع عادة وظيفة المكان بين وظيفة بنائية "إن وجود المكان الروائي قبل اختراق الشخصية له، يؤدّي دورًا بنائيًا أساسيًا خصوصًا إذا كان هذا المكان سيشكّل مسرحًا لأحداث لاحقة، تدخل في أساس بنية الرواية"[19]. أمّا الوظيفة التوثيقية، فهي الأقرب إلى التقريرية منها إلى العملية، والوظيفة الإيهامية التي تركز على تفاصيل المكان لتوحي بوقعية الحدث، والتفسيرية أي التي "تحمل علامات دالة لها غرض موحٍ وتؤول وفق ثقافة المتلقي، وتعدد بتعدد من يتناولها.

وكمثال على الوظيفة البنائية في رواية "لا أنام"، نرى وصف بيت أحمد بأثاثه وغرفة نادية وجدرانها والذي جاء ليشهد على ما سيحصل في ذلك المكان من زواج وطلاق وأفراح وأتراح، وليؤدي وظيفة بنائية للمكان. كما كان وصف شقة مصطفى بمكتبها وستائرها وأثاثها وأسطواناتها ليشهد على علاقة نادية بمصطفى لاحقًا والجّو الرّومنسي للمكان كما مهّد إلى لقاءات العاشقين وتطور حب مصطفى ونادية ونقاشاتهما حول أمور الحياة والحب والزواج وصفية. نحو: "وهي حجرة تضم "بار" كسيت جدرانه "بالمرمريت" الأسود ومقاعد الباركسيت بالجلد الأحمر.. ومائدة زجاجية..."[20]. في حين اتخذت بعض الأمكنة وظيفة توثيقية فعرّفتنا على مصر الجديدة ومنطقة الزّمالك وبعض الشّوارع الأجنبية، مثل: شارع ريجيت سترس، وبعض العواصم الغربية والفنادق. أمّا بيت أحمد فقد أدّى وظيفة إيهامية، وذلك بعد زواجه بصفيّة، فجاء تنظيم الغرف ونقل الأثاث ليظهر كيف تعيد المرأة الجديدة تنظيم المكان. كما أدّى وصف غرفة نادية حال قدوم مصطفى إلى منزلها وظيفة إيهامية أوحت بصوابية ما حدث وجرأة الأخيرة وتخطّيها الحدود. وأتت بعض الأمكنة لتؤدي وظيفة تفسيرية أيضًا كعزبة الأب، ولتّبين إنتهاء حبّ صفيّة والأب ولتنطق بموت الأمكنة، وفراق المحبين وسوداوية الأفق وتضعضع الأسرة.

أمّا وظائف الثّياب في الرّواية فتنوّعت، إذ أدّى الثوب الأسود الذي لبسته صفية دور الشّاهد على ذوقها الهادئ وبعدها عن التّهور مقارنة بالثّياب الملونة التي ارتدتها نادية والدّالة على طبقتها الاجتماعية،

وحبّها للحياة والحبّ. وأظهر ثوب نادية في خطبتها ذوقها الرّفيع. في حين بيّن ارتداء نادية الأسود حال مرضها حزنها وألمها. في وقت شكلت الأثواب التي ارتدتها نادية لمصطفى عوامل إغراء وجذب له. في وقت شكلت الأثواب التي ارتدتهم نادية لمصطفى عوامل إغراء وجذب له وبالأخص حين دعته إلى غرفتها في ظل غياب أهلها ما يظهر تهتكها وجرأتها التي تخطت كل المحرمات باسم الحب العابث. نحو: "ارتديت قميص نوم من الحرير الأبيض وارتديت فوقه روب ديشامبر من اللون الوردي"[21].

أمّا الأشياء فتنوّعت، فرأينا تحف البيوت كدليل على ذوق الشّخوص، وطريقة تفكيرها، وبيّنت أسطوانات بتهوفن حبّ مصطفى للموسيقى. ونطق مفتاح شقة مصطفى الّذي كانت نادية تتمنّى الحصول عليه أنّها ستبقى خارج لائحة حبيباته مهما فعلت. كما بيّنت أدوات الموسيقى الجّو الداعم للفّن في مصر، وأبرز المغنّين المحبوبين من الشّخصيات. ومهّدت إلى انغماس نادية أكثر مع مصطفى.

وبالنسبة إلى الأثاث، لعب أثاث بيت أحمد بعد قدوم صفية دور إبراز ذوق الأخيرة والاهتمام الذي بثّته في المكان رغم بساطة ما نظّمته من أثاث. وأظهر أثاث مصطفى تواضعه، وحبّه للأشياء المميّزة وحنكته في تحضير جوّ الحب وجذب الحبيبة في وقت نمّ أثاث بيت العزبة المغطّى بالشراشف البيضاء عن لا سكن أهله في المكان، وقرب انتهاء علاقة صفية وأحمد، ووحشة المكان، وغياب أفق الحل بين أحمد وصفية.

أمّا بالنّسبة للطعام والشّراب، فقد أوضح طبيعة الأطعمة الّتي تقدّم في البيئة المصرية، مثل: المصقّعة وأنواع المشروبات، مثل: عصير الورد المهدئ للأعصاب، والدافع لأحمد إلى التّريث في غضبه على أخيه. كما أتت الشكولاتة التي قدّمها مصطفى لنادية ورفضتها أوّل مرة، بمثابة محاولة من مصطفى للتّودد لها. وأتى الوسكي ليؤدي لاحقًا دور المخدر لنادية، والذي سمح لها بالشّعور بحبّ مصطفى. في وقت أنسى الويسكي والد نادية خيانة زوجه له. وشكل شراب التّوت الشّراب المفضل لدى صفية. وشهد على حبّها لانتاج الأرض وتواضعها ورغبتها إفادة الجميع صحيًا.

- **خلاصة**

من أبرز النتائج التي توصلت إليها في بحثي الآتي:

- غلبة وحدات الإخفاق والصراع، وعدم تحمل الاختبار على وحدات الإنجاز والحصول على مساعدة. ما نمّ عن محدودية قدرة الإنسان مهما كان ذكاؤه وفطنته وشرّه، فيبقى أنّه يفشل أمام بعض المعضلات الحياتية، والأسئلة الوجودية والتدخلات القدرية، واغراءات الحياة وتقلبات النفس البشرية
- غلبة الجملة مؤشر والمقطع على التشبيه والرمز، وتركيزهما على مشاعر الشخصيات المتأزمة، والجّو النفسي المتردي الذي عاشته في علاقتها مع غيرها

ومع ذاتها وأفكارها وأحلامها وهواجسها والمحيط. ما نمّ عن غياب أفق الحل. وبيّن كيف أراد إحسان عبر روايته إنطاقها بدلالات متنوعة تطال معاناة الإنسان وأزماته النفسية وصراعاته مع الآخر من أجل إثبات الوجود والهوية والكيان والإحساس بالإستقرار والأمان.

– غلبة المنظور الرّوائي الإيديولوجي لنادية على غيرها من الشّخصيات، وتنوّع أيديولوجيات الشّخصيات في نظرتها إلى الحب والحياة والفضيلة والله والإنسان، وغلبة المنظور الذّاتي على الموضوعي في الحكم على الأحداث والأمكنة والشّخصيات، ما يظهر رغبة أفراد الرواية في الفردية دون الاهتمام بالجماعة ونظرتهم الى الأمكنة انطلاقًا من أزمتهم الشّخصية وأحلامهم المستقبلية وتوجساتهم وبالأخص عند ناديا.

– غلبة الاسترجاع في علاقات التّرتيب الزمني على حساب الاستباق والقفزة والوقفة. ما أوضح عيش البطلة والشّخصيات في الماضي ومشاكله، وتأثير ذلك الماضي على الحاضر والمستقبل، وغياب تطور الفعلي للحدث. ونمّ عن إحالة الشخصيات إلى مزيد من التّأزم وغياب الحلم، وسيطرة الحوار ذي الرؤى المتنوعة حول القضية الواحدة، وغلبة السرد التصويري على غيره من التقنيات.

– غلبة الأمكنة المعادية للشخصية وبالأخص لنادية على حساب الأليفة، وسيطرة الأمكنة التي سلبتها والدها ومصطفى ومحمود، وأشعلت النار في قلبها على مصطفى ومن صفية وقلت المسرحية.

ما يظهر الدور الذي أداه المكان في تأزيم حياة البطلة وفي نصرة الأخصام. وطغت الوظيفة الإيهامية والبنائية على المكان فشهد المكان ما سيحدث مع الشخصيات من خيبات وإنجازات، ونمت تفاصيله عن واقعية ما يجري، محدثًا تفاعلًا بين القارئ والراوية والشخصيات وتأثيرًا على أفكارهم وعواطفهم. كما بيّنت التفاوت الطبقي بين الأمكنة، وارتباط ذلك بالتفاوت الثقافي والمادي والفكري لمن يرتاده من الشخصيات.

– أفرزت تقاطبات المكانية للمكان تقاطبات اجتماعية وثقافية وفكرية ومادية. وركّزت الأمكنة على أصحاب الطبقة البرجوازية. وانفتحت على الغرب. وأقامت مقارنة بين عالمهم وعالمنا وشبابهم وشبابنا وأوضحت الفرق بين الشرق والغرب في بعض الأمور، مبيّنة خفايا حياة الطبقة البرجوازية ونظرتها للأسرة والحب والعلاقات البشرية والإنسانية والعاطفية، وموقفها من الوجود، وأحلامها وتوجساتها وعلاقات أطرافها مع الناس العاديين والبرجوازيين في آن.

– بيّن اللباس الملون والمغري في ثياب ناديا دلعها وحبها جذب مصطفى في حين التزمت صفية باللباس المحتشم وغلبة الغرابة في لباس مصطفى، والإحترام في لباس محمود. في وقت ساهم الأثاث بتعريفنا على المستوى المعيشي للشّخصيات واهتماماتها وذوقها وطبيعتها، ولعب دور إظهار الوضع النّفسي للشّخصيات عندما دخلت المكان أو أثناء سعيها، وكان عامل جذب أحيانًا، وأخرى منفر وباعث على

السوداوية، أو مظهر لذوق الشخصيات. في وقت شهد الطعام والشراب على تعلّق الشّعب المصري على الرغم من غنى بعضه بمنتوجات الأرض المصرية والأطعمة والأشربة المفيدة. وساعد على تهدئة الأعصاب، وأحداث نوع من الألفة بين الشّخوص ما عدا الوسيكي الذي شهد على تهتّك الوالد ودمار كل شيء.

أتمنى أن أكون قد قدمت لمحة موجزة عن العالم الرّوائي لإحسان عبد القدوس في روايته "لا أنام" على أنّ التّعمق أكثر في هذه الرّواية لا يختصر في بحث واحد، آملة أن أكون قد ألقيت الضوء ولو قليلًا على بعض معالم العالم الرّوائي في "لا أنام"، وترابط عناصره شخصياته ووحداته وأمكنته وأزمنته، ومنظوره لخدمة إستراتيجيات الرّواية ودلالاتها.

***

الهوامش:

----

* تُعدّ أطروحة دكتوراه في اللغة العربية وآدابها – المعهد العالي للدكتوراه – الجامعة اللبنانية

** إحسان عبد القدوس، رواية "لا أنام"، بيروت – دار القلم، ط4، ص 24

1. رولان بارت، التحليل البنيوي للقصص، باريس: مركز الانماء الحضاري، 1993، ص 44- 45 - 46
2. ايلي انطون، البناء الروائي ودلالاته عند يوسف حبشي الأشقر، أطروحة دكتوراه، بيروت: كلية الآداب، 2006 ص 30- 31
3. عبد القدوس، "لا أنام"، ص 24
4. عبد القدوس، "لا أنام"، ص 186
5. سامي سويدان، أبحاث في النص الروائي العربي، بيروت، دار الآداب، 2000، ص 66
6. عبد المجيد زراقط، في بناء الرواية اللبنانية، المتحف، منشورات الجامعة اللبنانية، ج1، ص273
7. لطيف زيتوني، معجم مصطلحات نقد الرواية، بيروت، مكتبة ناشرون، ط1، ص 311
8. م. ن.، ص 113 - 114
9. انطون، البناء الروائي ودلالاته، ص312
10. زراقط، في بناء الرواية اللبنانية، ج1، ص706
11. عبد القدوس، "لا أنام "، ص 288
12. زراقط، في بناء الرواية اللبنانية، ص 706
13. عبد القدوس، لا أنام، ط 4، ص 234
14. عبد القدوس، "لا أنام"، ط4، ص 101
15. سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي، بيروت المركز الثقافي، ط1، 1999،،ص 78
16. عبد القدوس، لا أنام ، ط4، ص 89
17. بوريس أوسبنسكي، شعرية التأليف، ص 93
18. عبد القدوس، لا أنام، ط4، ص 288
19. حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، بيروت: المركز الثقافي العربي، ط1، ص 35-36
20. عبد القدوس، لا أنام، ط 4، ص71
21. عبد القدوس، لا أنام، ط4، ص 146

***

من أعلام الغناء العربي - صباح

